فى مفهوم التقوى ونحن لانعرف شيئا عن حياة اللفظ واستعمالاته القليلة أو غير القليلة .

لم عدل القرآن الكريم عن استعمال لفظ الكرم إلى لفظ الزكاة والصدقة والبر ، أليس هذا تساؤلا وإنكارا لاستعمال لفظ أساسى فى معجم الشعر القديم أو معجم الحياة القديمة .

على هذا النحو نستطيع أن نعلم أن اللفظ القديم يعنى فى حقيقة الأمر حياة أصابها التغيير ، واحتاج التغيير إلى لفظ جديد أو تعديل فى بعض جوانب اللفظ الموروث .

هذه ملاحظات واضحة ، ولكن تذكرها مفيد . كل لفظ يجب أن يمحص منذ عرف ، ويجب أن نتأمل بشىء من الصبر فيما يصيبه على أيدى مستعمليه فى بيئات متفاوته أو بيئة واحدة . ولكن أمور اللفظ كثيرة ومتشعبة . . كان أمين حريصا ، إذا واجه لفظا فى سياق معين ، أن يعرف كل ما يمكن معرفته عن هذا اللفظ فى سياقات أخرى كثيرة ومتنوعة . وبعبارة أخرى كيف يمكن أن نتصور وحدة اللفظ وتنوعه . هذه مسألة أهمت أمينا المشغول بالتفسير ونظريته . لايستطيع الأستاذ أمين أن يعرف سياقا محدودا دون أن يرجع إلى جملة السياقات التى تؤلف فيما بينها وحدة نسميها باسم العمل الأدبى كله .

هذه هى المسألة التى جعلت الأستاذ أمينا ينكر تاريخ الأدب ، وينكر كثيرا من الجهد المبذول فى ترجمة بعض النظريات الأوربية . لم يكن ضيقا بالتفتح ، ولكنه كان يلاحظ اختلاط الأهداف ، وعدوان بعض الأهداف على بعض .

وبعبارة ثانية كان يأسى لأننا لانشحذ فقهنا للألفاظ شحذا مستنيرا متواصلا .

وهكذا بدأ ما نسميه باسم تاريخ اللفظ شيئا ذا علاقة بمستقبل اللفظ الذى نحلم به فى غموض أو فى غير غموض .

كان أمين يعلم أن الإنسان يدرس نصا لأنه معنى بطائفة من القيم أو مخاصم لطائفة أخرى . . وهذا كله يتم بداهة من خلال اختيار الألفاظ . . كان يرى الألفاظ فى تحولاتها الممكنة تشكل جزءا من أحلامنا ، وبخاصة إذا واجهنا نصا كبيرا ، أو نصا أكبر من سائر النصوص على الإطلاق